منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (4990) السنة الثامنة عشرة الاربعاء (27) تموز 2021

محمّد سبيلا

فيلسوف الحداثة ١٩٤٢- ٢٠٢١

حين نتحدّث عن الفكر الفلسفي في المغرب، لا يُمكن تناسي محمد سبيلا (مواليد الدار البيضاء ــ 1942) الذي انطفأ أخيراً في الرباط بعد معاناة مع فيروس كورونا. كان الراحل أبرز الذين انكبّوا على دراسة مفاهيم وقضايا كالحداثة والتحديث والنّزعات الأصولية وحقوق الإنسان والديمقراطية والتقنية وما بعد الحداثة وغيرها من المفاهيم الفكرية، التي طفت على المشهد الفكري العربي، منذ ستينيات القرن العشرين. شهدت هذه المرحلة صراعاً فكرياً وإيديولوجياً، بين دعاة فكرٍ سلفيّ، وبين رواد الحداثة المغربيّة أمثال عبد الله العروي، ومحمد عابد الجابري، وعبد الكبير الخطيبي وأسماء أخرى من الأجيال الجديدة، جاءت بعد هذا الجيل المؤسِّس في تاريخ الفكر المغربي مثل محمّد سبيلا، وعبد السلام بنعبد العالي، وسالم يفوت، وكمال عبد اللطيف، وعبد الإله بلقزيز، ومولِيم العروسي، ومحمد نور الدين أفاية... انشغل هؤلاء ضمنياً بتشريح مفهوم الحداثة سياسياً واجتماعياً وثقافياً وفنياً مواجهين أنصار الفكر السلفي خلال سبعينيات القرن العشرين

محمّد سبيلا.. مفكّر الحداثة العربية وعرّابها

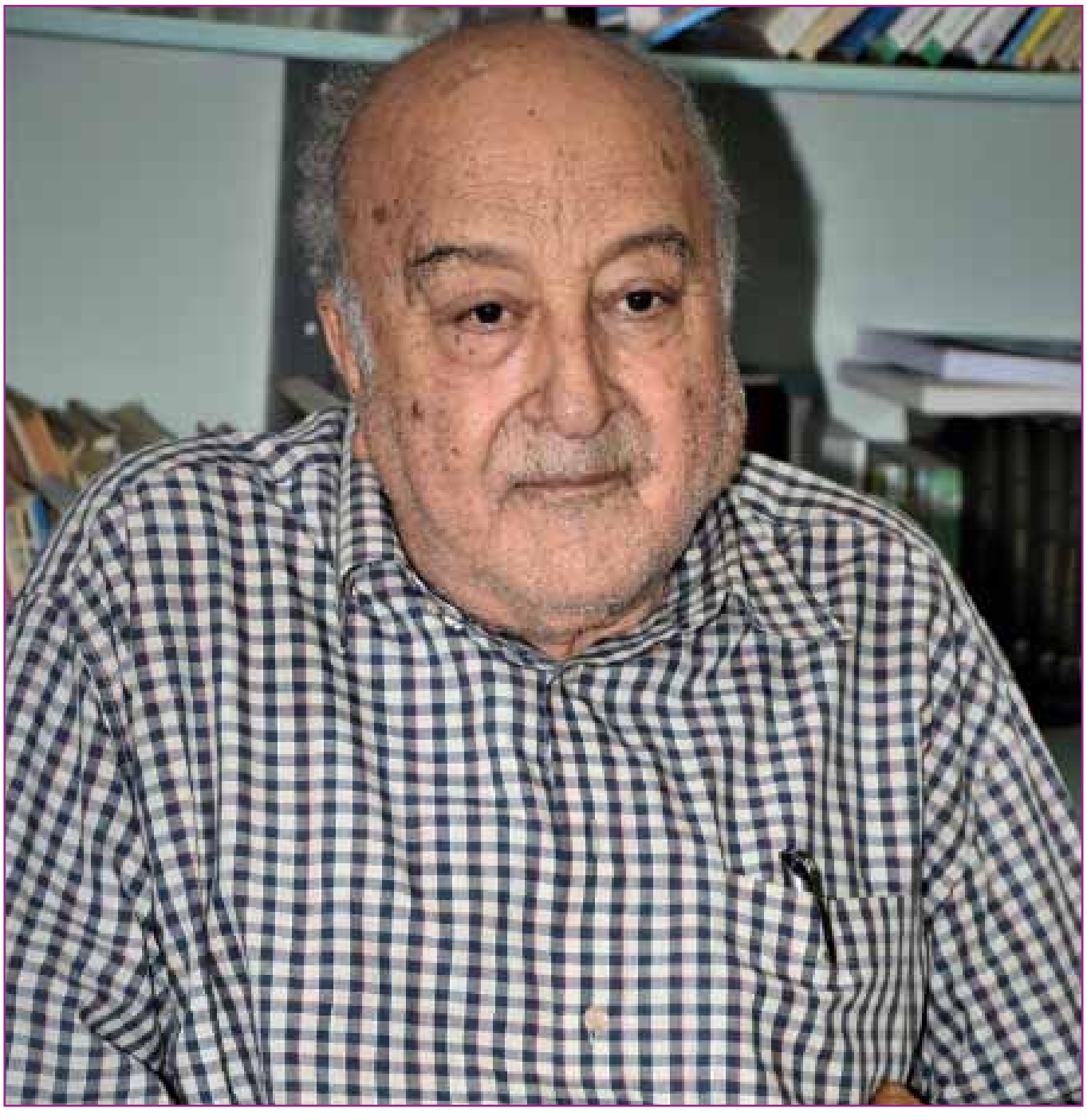

أشرف الحساني

في مجمل كتاباته الفلسفية، يغوص المُفكّر المغربي محمّد سبيلا (١٩٤٢-٢٠٢١) عميقاً في سؤال الحداثة على امتداد نصف قرن من التدريس والتفكير والكتابة والترجمة والبحث الأكاديمي، لكنّ بالطريقة، التي تجعل كُتبه تُشكّل حالة استثنائية على مستوى تفاعله مع عدد من قضايا الاجتماع الإنساني، التي باتت في الآونة الأخيرة، تُقدّم نفسها بوصفها ترسانة مفاهيمية وقضايا مركزية داخل الاجتماع العربي. فرادة محمد سبيلا في كتاباته، تتأتى من كونه سلط الضوء على مفاهيم منسيّة داخل المختبرات الفلسفية المغربيّة والعربيّة، لكنّها شغلت وما زالت الفكر الفرنسي منذ ثورة الطلاب سنة ١٩٦٧. فهو إلى جانب ما يُقيم معها من سجال حقيقيّ وتماه كليّ على مستوى النسق، يعمل بطريقته الخاصّة والذكية على فحص مفاهيم: التحرّر، الحداثة، التحديث، الإسلام السياسي، الهويّة، الآخر، التقدّم والتأخّر، على ضوء ما يعتمل داخل تاريخ «الفكر العربي» (البعض لا يقبل هذه التسمية) منذ بواكيره الأولى إبان القرن التاسع عشر، مُحاولاً تشريح هذه المفاهيم، كما نشأت داخل السياق التاريخيّ العربي، من دون أن يقع في فخّ الإسقاط المعرفي الغربي على قضايا وسياقات داخل العالم العربي. هذه الطريقة في تفكيك مكبوت ومنسيّ للثقافة العربيّة، ميّزت كتابات سبيلا داخل مجال البحث الفلسفي في المغرب، وجعلته في طليعة المُفكّرين المغاربة القلائل، الذين يعملون على إقامة نوع من الموازنة الفكرية، بين الكتابات الفلسفية الغربية وبين الموروث الفلسفي العربي منذ العصر الوسيط إلى اليوم. غير أنّ أهميّته تكمن بالضبط، في جعل هامش الحداثة ومفاهيمها وقضاياه تغدو مركزاً. هذا الأمر لدى محمّد سبيلا، يتّخذ صبغة دائمة في عدد من أعماله الفكرية، التي أسّست مسار وعي الفكر العربي منذ ثمانينيات القرن المنصرم. ففي الوقت الذي تئن فيه المختبرات الفلسفية المغربيّة من سطوة مفاهيم الديني والدنيوي والفكر والعربي والاستشراق والفلسفة الإسلامية الوسيطيّة، فكّر سبيلا عكس هذا التيار السائد داخل المغرب، بجعل الحداثة مدخلاً أنطولوجياً لتفسير مآزق الاجتماع المغربي، إلى درجة يشعر القارئ أنّه أمام مُفكّر موسوعي يكتب في مواضيع كثيرة تشغل الراهن العربي، لكنّه يظلّ حريصاً على قبعة الأكاديمي وعلى خيط الفلسفة، الذي منه تنبثق الموضوعات والمفاهيم والإشكالات.

مثقف أصيل

تعرفت إلى المُفكّر محمد سبيلا، في السنة الأولى والأخيرة من دراستي للفلسفة، بعد تخرجي حديثاً من شعبة التاريخ والحضارة. وبسبب معرفتي المُسبقة بأعلام الفلسفة الغربية الحديثة منها والمعاصرة وجدتني أنخرط بشكل مُكثّف في دراسة المتون الفلسفية داخل الفكر العربي المعاصر لكل من برهان غليون والطيب تيزيني ومحمد أركون وهشام جعيط وعبد الله العروي ومولييم العروسي وعبد الإله بلقزيز وغيرهم من المفكّرين العرب، باستثناء محمّد سبيلا الذي وجدت في درسه الإيبستمولوجي آنذاك بعضاً من الانزعاج الفكري، الذي قادني لاحقاً إلى قراءة دراسات فلسفية مغربيّة ومشرقية أقل تأثيراً على وعيي الثقافي والفكري. فقد كانت في مجملها تتعلّق بماركس وانجلز والنظرية الجماليّة عند هربرت ماركيوز وبيير بورديو وفلسفة الفنّ لدى هيغل وكانط في ما بعد. لكن في لحظة ما، بدا لي أنّ مفهوم الحداثة يُلوّح في سماء الدراسات، التي كُنت مُقبلاً عليها، قراءة ودرسا وفهما وكتابة. والحقيقة إني قد وجدت في هذه المرحلة المعرفية المُبكرة في كتب محمد سبيلا عوناً كبيراً ومهماز قوياً يشد انتباهي إلى فهم ما يحدث في السياسة والاجتماع العربيين. لاحقاً، ستتوطّد علاقتي بالمتون الفكرية لمحمّد سبيلا، انطلاقاً من كتابيه «النزعات الأصولية والحداثة» و«المغرب في مواجهة الحداثة»، ثم لحظة معرفتي بالكمّ الهائل من البحوث والأساتذة الذين تخرجوا على يده في شعبة الفلسفة في «جامعة محمد الخامس». غير أنّ اللحظة الكبيرة في اقتحامي عوالم محمد سبيلا الفكرية، كانت من خلال مفهوم «الحداثة»، إذ يستحيل اليوم الحديث عن هذا المفهوم الفلسفي في البلاد العربيّة، بدون محمد سبيلا، كأبرز المفكرين الذين تصدوا بشكل مركزي للمفهوم. أكثر من ذلك، قام بتشريح الحداثة من زوايا نظر معرفية مُتعدّدة، تبدأ بالتاريخ وتنتهي بالفلسفة.

عمل على إقامة نوع من الموازنة الفكرية، بين الكتابات الفلسفية الغربية وبين الموروث الفلسفي العربي منذ العصر الوسيط إلى اليوم

إنّ ما يشدّ حقيقة إلى كتاباته الفكرية، هو عمقها التحليلي وزخمها الأركيولوجي وبساطة لغة وأسلوب، تجعل أيّ قارئ أو طالب أو باحث يُقبل بشراهة على قراءتها والتقرّب منها، إلى درجة أنّها تجعله يشعر بالنفور من دراسات فكرية سابقة قرأها لبعض الجامعيين. ولاحقاً لما أتيحت لي فرصة اللقاء به شخصياً في حلقات وندوات داخل الكلية وخارجها أو في اتصالات هاتفية (في الأشهر الأخيرة من الحجر)، يشعر المرء بحجم الأسى، الذي جعله لسنوات بعيداً عن معرفة محمد سبيلا عن قرب. الصمت والابتسامة والتشجيع وعمق النظر، خصال ذاتية يتميّز بها محمد سبيلا. ولأنه لم يكن دائم الحضور إلى الكلية كضيف أو مشارك في عدد من ندوات نظّمتها شعبة الفلسفة، يظلّ المرء مشدوهاً لأسابيع طويلة، أمام الفرحة، التي يتركها محمد سبيلا في قلوب القراء والطلبة والباحثين والمترجمين والحبّ والاحترام اللذين يُبادلونه إياه، أوّلاً بسبب تواضعه الكبير وابتسامته الدائمة وعشقه لمن يشعر أنه يمتلك حسّاً نقدياً قوياً وشغفاً دائماً للبحث والترجمة والكتابة. وثانياً بحكم ما يستفيده الطلبة من كتبه الفكرية، التي أضحت اليوم وسيطاً معرفياً بين الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية وكبار متون الفلسفة الغربية قديمها وحديثها. لم يكن محمد سبيلا أستاذاً يختفي وراء بدلته الرسمية ويتقافز في خفاء للارتزاق من مختبرات الجامعة وشعبها، بل مُفكراً كبيراً وصانعاً لصرح فلسفي في المغرب المعاصر، بحيث إنّ كتاباته، ظلّت عابرة لأجيال من كُتّاب وباحثين ومترجمين وأساتذة، تأثّروا بوعي أو بدون وعي بكتابات محمد سبيلا الفلسفية، لأنّها شكلت منطلقاً معرفياً، سواء تعلّق الأمر بأبحاثهم أو مراجعاتهم أو ترجماتهم، التي يجدون من خلالها محمّد سبيلا، قد سبقهم بسنوات طويلة لاقتراح ترجمات تُعرّب بعض مفاهيم الفلسفة الفرنسيّة المعاصرة.

من الحداثة إلى الحداثة

«مخاضات الحداثة»، «للسياسة بالسياسة»، «الحداثة وما بعد الحداثة»، «حقوق الإنسان والديمقراطية»، «مدارات الحداثة»... بمثل هذه العناوين الفكرية المُتفرّدة تفكيراً وكتابة ومنهجاً ونسقاً، عمل محمّد سبيلا، على مراكمة متن فلسفي، يكاد في مجمله لا يخرج عن مدارات

الحداثة وما بعدها، بوصفها مرحلة فكرية لاحقة عنها أو هي بمثابة امتداد للحداثة بتعبير ليوتار. لكن اشتغاله على مفهوم الحداثة بدا مُغايراً للتقاليد الأكاديميّة المغربيّة، التي تُحاول التماهي مع الفكر الفلسفي الغربي والدخول في سجال معه على مستوى الكتابة والنسق على شكل دراسات تدرس المفهوم لدى فيلسوف مُعيّن، فجاءت بعض الكتابات كأنّها منفصلة عن المسار التحديثي العربي، وهي تغوص في هذا التراث الفلسفي الغربي، لأنّها غدت مزدوجة في صورتها ومنفردة في خطابها الفلسفي وتعيش انفصاماً حقيقياً، بحيث أنّ أغلب هؤلاء الذين ساجلوا الفكر الغربي وظلّوا يعيشون في سراديبه وظلاله، لم يُقدّموا درساً فلسفياً جديداً، فكتاباتهم عبارة عن شرح لنظريات أو تلخيص لدراسات منشورة مُسبقاً في مجلّات وكتب. وهذا النوع تفاقم داخل البحث الأكاديمي للجامعة المغربيّة وجعل الفلسفة تتحوّل إلى فقه واستظهار للنظريات، عوض تشرّبها ونقدها والاحتفاظ، بما تمنحه من قوّة ناعمة في الحفر داخل الفكر العربي كمُحاولة لـ «تبيئة» المفاهيم الفلسفية والسياقات التاريخيّة والمداخل النظرية، بغية خلق سجال فلسفي مع الآخر، ما جعل البحث الفلسفي الأكاديمي كأنّه يعيش في غيبوبة الماضي. فبدل أنْ ينفتح على موضوعات فلسفية ذات علاقة بحياتنا اليومية مثل: الفنّ والجمال والفضاء العمومي والجسد والصورة، يُسافر الأكاديمي في إشكالات فلسفية، لا ترتبط بالإنسان المعاصر وقلقه وتحوّلاته السياسية والاجتماعية والثقافية. إنّ تجميع النظريات الفلسفية واستظهارها وتوليفها في دراسات مغربيّة، جعل الفلسفة تدور في كوكب مغلق وأفق مُجهض، يجعل من الخطاب الديني سيّد البحث الفلسفي في المغرب، مقابل غرب حقّق حداثة مُبكّرة منذ الأزمنة الحديثة وأضحى يتطلّع صوب فكر ما بعد الحداثة، وبين تراث مغربي مُغلق وتقليدي، يُشكك مفكروه إنْ كان قد دخل حقاً إلى مرحلة الحداثة.

إلاّ أنّ اللافت عند محمّد سبيلا، هو أنّه لم يتخلّ عن الفكر الغربي، لكنّه بشكل ضمني، لم يُعمّر فيه طويلاً، بعد تعريب مراجعه الكبرى، بقدر ما حرص على الحفر في تعيين الحداثة داخل البلاد العربيّة وفهم مُنطلقاتها وأسباب تعثّرها وعدم نجاح بعض نماذجها الكبرى (السياسية والفكرية) في التأثير في بنية العقل العربي الحديث (البعض لا يقبل هذه التسمية التي وضعها محمّد عابد الجابري) التي جعلته مُفكّر الحداثة بامتياز، لأنّ تناوله لها بالفحص والدرس والنقد، لم يكن عرضياً أو حتى برانياً، بل شكّلت لديه أفقاً فلسفياً منه تتبلور الأفكار والموضوعات والأحلام، بل داخلها يكمن عجز العرب وعدم تقدّمهم لأنّه ظلّوا طيلة قرون يولون ظهورهم للحداثة منذ فترة الاستعمار. على هذا الأساس، شغلت الحداثة ناصية كبيرة في المشروع الفكري عند محمّد سبيلا، لأنّه شعر بأنّ المفهوم منذ السبعينيات، لم يأخذ حقّه داخل الدراسات الفكرية والتاريخيّة، التي بزغت داخل المغرب، لكونها بقيت مجرّد مبحث فكري عابر داخله، لكنّها أضحت فيها قضية مركزية عند محمّد سبيلا وطلبته (أشهرهم تأليفاً الدكتور محمّد الشيخ) الذين جعلوا المفهوم مُتداولاً بكثرة داخل البحث الفلسفي، وإنْ بقي محصوراً في نماذج الحداثة التقنية والسياسية والاجتماعية في غياب كليّ للحداثة الفنيّة ومداراتها البصريّة.

أسئلة الترجمة والتاريخ

إلى جانب البحث الفلسفي، انشغل محمّد سبيلا طويلاً بسؤال التعريب، فقد قاده الدرس الفلسفي الجامعي إلى ترجمات عشرات الكتب الفلسفية الكبرى مثل: «التقنية، الحقيقة، الوجود» لهيدغر و«التحليل النفسي وأسسه الفلسفية» لبول لوران أسون و«نظام الخطاب» لميشال فوكو و«الفلسفة بين العلم والأيديولوجيا» لألتوسير. هذه الكتب بقدر ما أسهمت في خلخلة واقع الثقافة المغربيّة، ظلت بشكل آخر كأنّها الأعمدة، التي شُيّد من خلالها محمّد سبيلا مشروعه الفكري، بحيث إنّ ترجماته، لم تعكس سوى اهتماماته الفلسفية بموضوعات فلسفية، كانت تعيش ضرباً من اللامفكّر فيه داخل الفكر المغربي. فالترجمة لديه ليست بذخاً فلسفياً وإنّما حاجة أنطولوجية لفهم تراث الآخر الفلسفي، لا سيما أنّ الفكر المغربي، كان في حاجة ماسّة إلى بعض الفلاسفة كهيدغر وألتوسير لتحرير المُخيّلة من ربقة العلاقة المتأزّمة بين الفلسفي والأيديولوجي. فقد فتحت ترجمة ألتوسير مثلاً مجالاً كبيراً لمساءلة التراث الماركسي وفهم التحوّلات الإبستمولوجية، التي ألّمت بالنصّ الماركسي داخل الفكر العربي، بحيث يعثر الباحث على دراسات تعاملت مع الفلسفة الماركسية، باعتبارها معتقداً لا فلسفة، كما دعا إليها ماركس. هذا الأمر جعل من ترجمة كتاب ألتوسير، بمثابة فتح داخل الثقافة المغربيّة، لأنّه فتح المجال أمام فكر جديد يُقيم حدوداً وسياجات بين الأيديولوجيا والتفلسف. فالأولى تقف عائقاً ومانعاً في وجه تفسير النصّ الفلسفي، وتجعل دلالاته وتأويلاته مُغايرة تماماً لأصله وماهيته.

فالفلسفة ليست أيديولوجيا لدى محمّد سبيلا، بل هي قوّة ناعمة، تبدأ من الداخل وطريق نظر نقدي مختلف، يجعل التفكير يُكسر كل أشكال البديهيات واليقينيات السطحية المُميتة، فتحرير المُخيّلة من أشكال العنف رهين أوّلاً بتحرير الجسد من مختلف أنماط التكلّس الفكري، الذي يحصر الفلسفة في العقل، ويجعل الجسد مجرّد آلة إنتاج الرغبة (دولوز). لقد خلقت ترجمات محمّد سبيلا وعياً نقدياً قوياً داخل ما اصطلح عليه بـ«اليسار الجديد» (ألتوسير) داخل حركة الأحزاب اليسارية في المغرب، فقد تم الانتباه إلى الأساس النظري الماركسي، الذي تم تحريفه لسنوات على أساس أنّه فلسفة ماركسية، ما ساهم في ظهور فصائل أيديولوجية تتحدّث باسم ماركس، بل الأكثر من ذلك، تعمل ضمن مُخطّطاتها السياسية على إقامة نوع من الموازنة الأيديولوجية بين ماركس والحركات الإسلامية وفقاً لما راج سطحياً بـ«الماركسية المعتدلة» بوصفها نمط تفكير، يستند إلى تبيئتها داخل سياق سياسي، يكاد لا يُفارق الأصول، يظلّ دوماً يحن إلى ماضيها التليد إبان الدعوة وبعدها.

لكن ما يشدّ الانتباه إلى مشروع محمّد سبيلا الفلسفي، هو أنّه منهجياً من الداخل يمشي على قدمين (الفلسفة والتاريخ)، إذْ لم يجعل من كتاباته مرآة لمختلف أنماط الفلسفة الغربية والاستطراد في تجريدها ولا كإزميل يُعيد به نحت مُدوّنة التراث الفلسفي العربي الإسلامي، لكنه جعل الكتابة الفكرية، تبدأ بالتاريخ وتنتهي بالفلسفة. إنّها تتشابك إبيستمولوجياً في ما بينها وتخلق نظرة مُغايرة وثاقبة إلى مفهوم الحداثة، لا تحاول اجترار براديغمها ولا تعمل على توليف سياقاتها وجعلها أشبه بحكاية فلسفية تُروى على مسامع الباحثين باسم الفلسفة. ولكنّ محمّد سبيلا، كان على وعي مُسبق بضرورة الاستناد إلى التاريخ كأساس إبيستمولوجي ثابت، لأنّ التفكير الفلسفي وحده، يبدو قاصراً على مقاربة مفاهيم الحداثة والتحديث، إذا هو لم يستعن بالمعرفة التاريخيّة وأقطابها، كما فعل ذلك عبد الله العروي بخصوص مشروعه الفكري. لكنّ الاختلاف مع سبيلا، أنّ الأوّل مُؤرّخ يستعين بالفلسفة. والثاني مُفكّر يستعين بالتاريخ، فهذا التلاقح الإبيستمولوجي مجال بحث سبيلا، ساهم في إغناء كتاباته الفكرية وجعلها أكثر عموماً بالنسبة للباحث التقليدي، الذي يقف تكوينه عند سياج التخصّص، مُتناسياً الثورة المعرفية التي شهدتها العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي جعلت الحدود بين المعرفة التاريخيّة والفلسفية واهية وإجرائية ومُنعدمة، بالنظر إلى شكل المعرفة والحياة التي رافقت ميلاد الإنسان المعاصر. إنّ التاريخ لديه يحضر بوصفه سياقاً أو «ميكانيزم» أو «براديغم»، وأحياناً كذريعة لإقامة حفريات في تاريخ التقابل بين الفكر الغربي والنظر العربي، كما هو الشأن في كتابه «النزعات الأصولية والحداثة» الذي تجاوز فيه محمّد سبيلا النمط الفلسفي المجرّد، إذْ يغدو في لحظة ما مُؤرّخاً وأنثروبولوجياً يحفر في مُتخيّل الإسلام السياسي والأصولية والحداثة والعنف والتطرّف والهوية العربيّة كاستثمار للدعاية السياسية.

إنّ رحيل محمد سبيلا، فاجعة حقيقية في تاريخ الثقافة المغربيّة، بالنظر إلى مفكّر في حجمه باعتباره عرّاب فكر الحداثة مُفككاً تاريخها وشروطها ومواصفاتها وسياقاتها، لكنّه لم يجعل عملية البحث والكتابة تأخذ بُعداً مُجرّداً، يغوص في الأنساق الفلسفية الحديثة والمعاصرة، بل كان لزاماً عليه إقامة نوع من الفكر الأركيولوجي، الذي يحفر في تاريخ الحداثة العربيّة والغربية في آنٍ واحد، كشكل من الطباق الفلسفي الذي يقبل الآخر، لكنّه دون أنْ يُقيم فيه تفكيراً وكتابة وبحثاً ووجوداً. إذ لم يكن من الممكن لدى محمّد سبيلا بلورة مشروع فكري، يستند إلى الحداثة والتعريف بها داخل مجالات البحث في تاريخ الثقافة المغربيّة، بمنأى عن مرحلة هامّة من حياته الفكرية المُتمثّلة في الترجمة الفكرية للعديد من الكتب الفلسفية، التي شكّلت خياراتها المعرفية وسيلة من وسائل تجذير الحداثة في الوعي الفلسفي العربي.

عن موقع اضاءات

محمد سبيلا مشى على هدي سلفه الأندلسي ابن رشد

التنويري المغربي طرح مسألة العلاقة بين التراث والحداثة أفضل مما فعل غيره

هاشم صالح

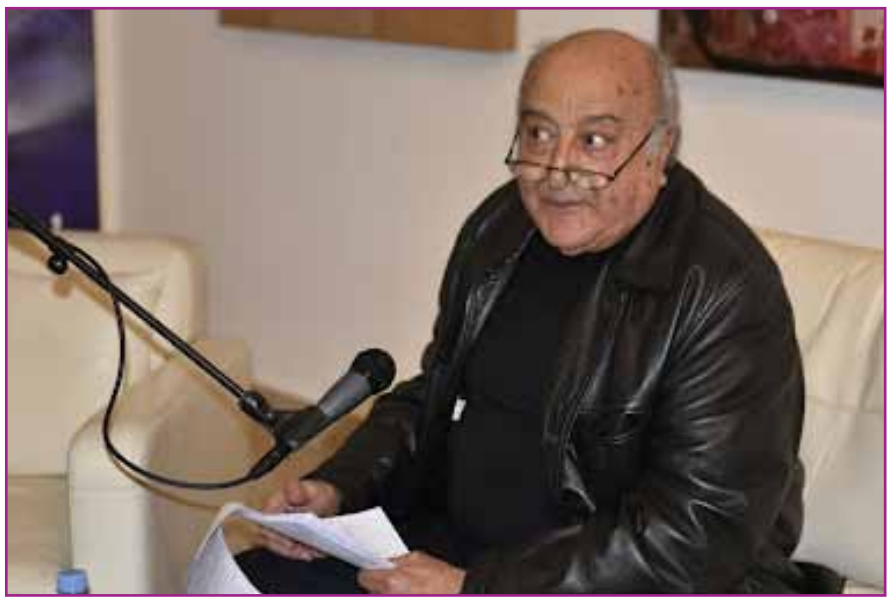

كنت قد التقيت محمد سبيلا، الباحث المغربي الذي رحل الأسبوع الماضي، على هامش عدة مؤتمرات فكرية حصلت في الدار البيضاء وفاس ومكناس والمحمدية والرباط، إلخ. وما أكثر المؤتمرات والندوات في المغرب، هذا البلد المثقف الجميل الذي يعد الوريث الشرعي للحضارة الأندلسية العظيمة.

وفي كل هذه اللقاءات كنت أشعر بأخوّته وصداقته الكبيرة، يضاف إلى ذلك أن الهموم الفكرية كانت مشتركة بيننا. فهو مشغول جداً بموضوع التراث والحداثة وأنا أيضاً. ومعلوم أنه كان أستاذاً كبيراً للفلسفة في جامعة محمد الخامس الشهيرة في الرباط وقبلها كان رئيساً لقسم الفلسفة في جامعة فاس العريقة. أعتقد أنه لم يهتم مثقف مغربي ولا حتى عربي بموضوع التنوير والحداثة أكثر مما اهتم محمد سبيلا. لقد كان قدوة لنا جميعاً في هذا المجال. يكفي أن نعدّد عناوين كتبه مجرد تعداد لكي نتأكد من ذلك: مدارات الحداثة، المغرب في مواجهة الحداثة، الحداثة وما بعد الحداثة، دفاعاً عن العقل والحداثة، مخاضات الحداثة، الشرط الحداثي، إلخ.

أعتقد أن الدكتور محمد سبيلا عرف كيف يطرح مسألة العلاقة بين التراث والحداثة بشكل أنجع وأفضل مما فعل الجابري أو سواه من المثقفين العرب. فالجابري كان تراثياً أكثر منه. هذا لا يعني أن محمد سبيلا كان معادياً للتراث، أبداً أبداً... لقد كان مشبعاً بالتراث العربي الإسلامي وفخوراً به. ولكنه كان يعرف كيف يفرّق بين الجوانب المضيئة من التراث والجوانب المظلمة، الجوانب التقدمية والجوانب الرجعية. ولذلك فعندما يطرح عليك أحدهم هذا السؤال: هل أنت مع التراث أم ضده؟ لكي يحرجك رد عليه فوراً بسؤال آخر: أيّ تراث تقصد؟ فله سفحان يا صديقي لا سفح واحد. لقد كان محمد سبيلا واضحاً كل الوضوح فيما يخص هذه النقطة. يقول لنا بهذا الصدد ما معناه: «للأسف لم يتم إحياء الجانب المستنير من التراث العقلاني والتنويري والاجتهادي الموجود في الثقافة العربية. على العكس لقد طمسوه وأشاعوا فقط الجانب المظلم المتشدد الداعي إلى العنف». هكذا نلاحظ أنه كان مدركاً تماماً لنوعية المشكلة التي نعاني منها في مجتمعاتنا العربية والإسلامية. فالترويج للجوانب المظلمة من التراث على شاشات الفضائيات وفي برامج التعليم يمثّل مشكلة حقيقية. والأخطر من ذلك هو طمس الجوانب المضيئة. وبالتالي فنحن مع محمد سبيلا من الجنود المدافعين عن التراث ولكن ليس أي تراث أو ليس كل التراث. لن ندافع أبداً عن الجوانب الظلامية التكفيرية التي تحتقر كرامة الآخر أياً يكن. ولكن للأسف لا تزال هي السائدة والمسيطرة على الشارع العربي كما يقال. والسبب أنها امتداد لعصور الانحطاط الطويلة. وأنت لا تستطيع أن تناضل ضد ألف سنة من التحجر الفكري والتكلس والتحنط بسهولة. كل هذه الأشياء كان محمد سبيلا واعياً لها تماماً. وكان يعرف أن المعركة التنويرية مع الاتجاهات الظلامية غير متكافئة بل صعبة جداً وعسيرة.

وماذا عن وضع الفلسفة؟ ما رأيه فيها؟ هنا أيضاً يضع محمد سبيلا يده على الجرح ويقول: «المشكلة هي أن العالم العربي الإسلامي ظل ينظر إلى الفلسفة على أساس أنها بضاعة غربية دخيلة علينا. لقد رأى فيها نبتة إغريقية غريبة على ثقافتنا». وبالإضافة إلى ذلك فقد اتهم فقهاؤنا الفلسفة بالزندقة والإلحاد. لماذا؟ لأن الخطاب الفلسفي هو خطاب يختلف في منطلقاته وبنيته الاستدلالية عن الخطاب الديني التقليدي. فهذا الأخير مع احترامنا له هو خطاب مليء بالمسلّمات واليقينيات القطعية الراسخة في النفوس والتي لا تقبل النقاش. أما الخطاب الفلسفي فمفتوح للنقاش والتساؤلات والأخذ والرد. الفلسفة تطرح تساؤلات مفتوحة ولا تجبرك بشكل مسبق على الإيمان بمعتقدات ويقينيات قطعية نهائية». ونضيف إلى قول المفكر المغربي الكبير ما يلي: كان نيتشه يقول هذه العبارة العميقة: ليس الشك وإنما اليقين هو الذي يقتل! بمعنى أنه لم يُقتل أحد باسم الفلسفة وإنما قتل الكثيرون باسم اليقينيات الدوغمائية المتحجرة. ولذلك يقول لنا محمد سبيلا ما معناه: الفلسفة ليست علماً للحقائق وإنما مجرد تساؤلات مفتوحة. ولذلك ستظل هناك عداوات دائمة ومستحكمة بين الفلسفة من جهة، وجميع أشكال الاعتقاد الدوغمائي من جهة أخرى. وهذا شيء موجود في المجتمعات البشرية كافة. ولكنه اتخذ طابعاً حاداً في مجتمعاتنا العربية الإسلامية. ويرى الدكتور سبيلا أن تاريخنا العربي الإسلامي مليء بتحقير الفلاسفة ومحاولات الإجهاز على الفلسفة. وهناك وقائع تثبت أن السلاطين القدماء حرّموا تدريس الفلسفة في جامعة القرويين. لحسن الحظ فإن هذا الوضع تغير كلياً مؤخراً. فالفلسفة أصبحت تُدرس في جامعات المغرب بل حتى في مدارسه الثانوية في ظل الملك المستنير محمد السادس.

بالطبع لا يجهل محمد سبيلا أن معاداة الفلسفة تعود إلى فقهاء عصر الانحطاط بالدرجة الأولى لا إلى النصوص الإسلامية التأسيسية. فهو يعرف أن القرآن الكريم حضّنا على ممارسة التعقل والتفكر والتدبر في آيات بينات عديدات. وهو هنا يلتقي مع ابن رشد الذي استشهد بهذه الآيات في بداية كتابه الشهير «فصل المقال» بغية خلع المشروعية على دراسة الفلسفة والاهتمام بها. وهو الكتاب الذي يقيم المصالحة بين الشريعة والحكمة، أو بين الدين والفلسفة. كل هذا يعرفه جيداً أستاذ الفلسفة الكبير محمد سبيلا. وعلى هدي سلفه الأندلسي العظيم كان يمشي. ولكن المشكلة هي في عصور الانحطاط الظلامية المتأخرة. هناك فكرة أساسية أخرى يركز عليها محمد سبيلا أيضاً. وتتلخص في مصطلح واحد: الفوات المعرفي أو الفوات التاريخي. ويقصد به التفاوت التاريخي بين العرب والغرب. فهو يرى أنه ينبغي علينا أن نستدرك ما فاتنا في مجال الفلسفة. ينبغي استدراك الفوات التاريخي القديم والفوات التاريخي الحديث. ماذا يقصد بذلك؟ إنه يقصد أن العرب القدماء لم يترجموا جميع أعمال أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة الإغريق. ونحن في العصور الحديثة لم نترجم جميع أعمال ديكارت وكانط وهيغل مثلاً. فهذه جبال شامخة من الأفكار البشرية العامة، هذه جبال وغابات لم تستكشفها بعد ثقافتنا العربية المعاصرة. وهذا يشكل نقصاً كبيراً فيها أو لديها. هذا شيء لا يغتفر. هذا شيء لا يمكن أن يستمر. ثم يقول سبيلا متألماً ومستنكراً: «هل تعلمون أننا لا نمتلك المتن الكامل لديكارت، ولا المتن الكامل لكانط وهيغل ونيتشه وهيدغر وبيرغسون وعشرات غيرهم؟ لهذا السبب فنحن مطالبون باستدراك ما فات. وسوف يمر وقت طويل قبل أن نتمكن من ترجمة وهضم كل ما سبقنا وفاتنا».

لقد أعجبتني هذه الفكرة كثيراً عند محمد سبيلا وأعتقد أنها صحيحة مائة في المائة. هناك نقص في ثقافتنا، هناك فجوة كبيرة ينبغي سدها أو ردمها. فما دمنا لم نستوعب كل المراحل الكبرى السابقة من تاريخ الفكر الفلسفي فسوف نظل نشعر بنوع من الخواء والفراغ الداخلي. سوف نظل نشعر بأن هناك شيئاً ما ينقصنا ويجعل ثقافتنا هشة وسطحية ومؤدلجة أو قابلة للاختراق الأيديولوجي الديماغوجي. ما هذا الشيء الخطير الذي ينقصنا؟ إنه يتلخص في التساؤل البسيط التالي: ما الفتوحات الفلسفية الكبرى التي حصلت في تاريخ البشرية منذ القرن السادس عشر حتى اليوم؟ بل ما الفتوحات العلمية أيضاً أو الثورات العلمية؟ هل يُعقل أن يبقى المثقف العربي جاهلاً المدلول العميق لكل هذه اللحظات الحاسمة في تاريخ الفكر البشري؟ بل هل يستحق أن يُدعى مثقفاً بعد كل ذلك؟

لقد تأكدتُ أكثر من صحة هذه الأطروحة بعد أن اطّلعت مؤخراً على كتاب ضخم يستعرض تاريخ الفلسفة من أولها إلى آخرها. لأول مرة أصبحت أعرف معنى اللحظة الأفلاطونية في تاريخ الفكر، واللحظة الأرسطوطاليسية، واللحظة الرواقية، واللحظة الأبيقورية، واللحظة المسيحية، ولحظة عصر النهضة، ولحظة ديكارت... والحبل على الجرار. ولا أنسى لحظة لايبنتز وسبيوزا، والفلسفة الأنغلوساكسونية، ولحظة كانط والأنوار، ولحظة روسو وتوكفيل، ولحظة هيغل والفلسفة المثالية الألمانية، ولحظة شوبنهاور، ولحظة تلميذه نيتشه، ولحظة ماركس، ولحظة فرويد، إلخ... وقسْ على ذلك حتى وقتنا الراهن. بعد أن نطّلع جيداً على كل هذه اللحظات الأساسية أو التأسيسية ونهضمها ونستوعبها يمكن للثقافة العربية أن تواجه الثقافة الفرنسية أو الألمانية أو الإنجليزية مواجهة الندّ للندّ. هذا هو جوهر أطروحة محمد سبيلا، هذا هو الدرس الكبير الذي خلفه لنا سبيلا الذي كان غيوراً جداً على مصلحة الثقافة العربية ومستقبلها. وكان يحزّ في نفسه هذا الفوات التاريخي الذي يفصل بين الفكر العربي والفكر الأوروبي. كان يريد بأي شكل ردم هذه الهوّة الفلسفية السحيقة التي لا تزال تفصل بيننا وبين الأمم المتطورة. فتحية إذن إلى محمد سبيلا أستاذاً جامعياً، ومثالاً أخلاقياً، ومنارة للأجيال.

عن الشرق الاوسط

محمد سبيلا

مفكر عقلاني يراهن على الحداثة لتطويق التخلف

محمد ماموني العلوي

أفكاره وآراؤه في الحداثة والتنوير مستجدة. فما تعرفه الساحة الثقافية المغربية من ترهل على مستوى الإنتاج الفكري الرصين، وتوسع قاعدة المتنمرين ضد الأصوات المنادية بالإصلاح، والترويج المستمر للفكر المتطرف وما يقابله من ضعف في البرامج التنويرية الجادة والقريبة من هموم المواطن، تجعل العودة الدائمة إلى الفكر الراسخ حاجة استراتيجية للمرور الآمن نحو المستقبل دون اصطدام قاتل بين التقليد والتحديث.

الفيلسوف محمد سبيلا، هواه السياسي يساري ومنهجه الفلسفي ديكارتي. ناضل سبيلا في صفوف الاتحاد العام لطلبة المغرب، ولم ينه علاقته مع عالم السياسة في جانبها المتعلق بمجاله البحثي حيث اهتم بالتحديث والعقلانية في نشاطه الفلسفي كمطلب عزيز للفكر الإنساني في زمن التحولات القيمية والتقنية.

راهن على الفكر الحداثي لتطويق الفكر التقليدي والنهوض بالمغرب ثقافيا ولفتح الأبواب أمامه كي يجد لنفسه مكانا في الحضارة الحديثة، فهو كما أكد محمد بن عيسى، أمين عام منتدى أصيلة، كان أحد السباقين إلى إدماج الفلسفة وإبراز أهميتها لفهم مكونات وإشكاليات المجتمع المغربي من الداخل، ما أفضى بهم إلى استيعاب وفهم طبيعة القيم التي تتحكم في مسار ينشد التقدم والتعاطي مع قضايا العصر.

كانت لديه الجرأة الفكرية الكافية للربط ما بين الثقافة في شموليتها والنضال من أجل التحرر من الخرافة والنكوص، معتمدا أبجديات التحديث والديمقراطية لأجل التقدم، لهذا يصعب عليك تصنيفه فهو الفيلسوف والمفكر والمثقف المنهمك في قضايا المجتمع، قد تدخل في متاهات التأويل غير الصحي إذا لم تكن ملما ببعض الأساسيات في فكر الرجل ومرجعيات مشروعه الحداثي التنويري، ولا يمكن حصر تفكيره في مفردة الحداثة منفصلة عن معيش الإنسان في بعده الأنطولوجي الدائم القلق والتساؤل.

الحداثة كما يفهمها المغاربة تأتي في قلب الإنتاج الذي هو استجابة مباشرة للتاريخ وللمتطلبات الصريحة في برنامج الحركة الوطنية بشقيها الكلاسيكي والتحديثي المرتبط بالقوى التقدمية أو اليسارية، حيث أصبح الاختيار التحديثي اختيارا وطنيا.

لغة كتابات سبيلا مختارة بعناية تفصح عن المكنون في فكر الرجل بلا لبس لكنها حمالة أوجه وتأويلات كما حددها مهتمون بنتاجات سبيلا صاحب العديد من المؤلفات القيمة والذي نظر إلى الفلسفة كمختبر فكري ودلالي ولغوي حفر من خلالها طريقا نحو التنوير والحداثة والتطور، فأبدع "مدارات الحداثة"، و"الأصولية والحداثة"، و"دفاعا عن العقل والحداثة"، و"مخاضات الحداثة"، ليكون العامل المشترك بين هذه الإصدارات هو مفهوم الحداثة وتطورها.

إذا تناولنا الفلسفة بكونها الباب المشرع نحو الحداثة، فهناك مدرستان فلسفيتان حداثيتان في العالم العربي، التونسية والمغربية، وما يميز كلتيهما حسب رأي سبيلا هو أن المدرسة الفلسفية التونسية متميزة بعطاءاتها وشموليتها وهي مرتبطة بمشروع التحديث الذي عاشته الدولة التونسية ورعته بشكل مباشر أو غير مباشر، أما المدرسة الفلسفية المغربية فعصامية وتكونت بمجهودات فردية وتلقائية.

فالحداثة كما فهمها المغاربة تأتي في قلب الإنتاج، الذي هو استجابة مباشرة للتاريخ وللمتطلبات الصريحة في برنامج الحركة الوطنية بشقيها الكلاسيكي والتحديثي المرتبط بالقوى التقدمية أو اليسارية، حيث أصبح الاختيار التحديثي اختيارا وطنيا. كما أنها تغتذي من العلوم الإنسانية ومن تحولاتها التي عرفتها هذه الأخيرة، ثم رغبة الفلسفة المغربية في السياقات الكونية، أي الالتحاق بالتاريخ الكوني، فالحداثة "المداهمة" لا تقدم نفسها كحزمة حلول وحقائب جاهزة، بل تطرح نفسها كإشكالية متعددة الجوانب، وتدخل مع التقليد في تنابذات وتصارعات.

ومنذ نشأتها ظلت الفلسفة المغربية تفكيرا في الواقع الحاضر، كما يقول سبيلا، أي في دينامية التاريخ، وهو تركيز لإكراه، يعكس سلطة الواقع وقوة الحاضر ومتطلباته وضروراته تستجيب لهذا الإكراه وتضعه تحت مجهر الفكر، و"يتابع" الانشغال بالفلسفة ومفاهيمها ليس كترف فكري، يجعلنا في أبراجنا العاجية كما يقال، بل كهم ومشغلة يومية، بما يجعلها تفكيراً في الواقع، متناغمة مع الفيلسوف الألماني هيغل في كون الفلسفة هي الصورة الفكرية عن الواقع واللحظة التاريخية.

وعلى هذا الأساس يذكّر الباحث في الفلسفة محمد الشيكر بالدور الذي لعبه سبيلا إلى جانب غيره من المفكرين، في توطيد ثقافة مغربية حداثية تستمد مقوماتها من الفلسفة الغربية، لكن دون أن تنتمي إلى أفقها.

سبيلا يرى أن الإرهاب ظاهرة سيكولوجية لا دين لها، وداعش أبرز أمثلتها أمامنا. لذلك كان ممن طالبوا بالبحث عن جذور الإرهاب العقدية والدينية

سبيلا يرى أن الإرهاب ظاهرة سيكولوجية لا دين لها، وداعش أبرز أمثلتها أمامنا. لذلك كان ممن طالبوا بالبحث عن جذور الإرهاب العقدية والدينية.

ظل الجدال قائما بين الحداثيين والمحافظين حول دور التراث في فرملة التقدم والتطور نحو آفاق أكثر رحابة في الفكر والسياسة والاجتماع، ويعتبر سبيلا من الحداثيين الواقعيين الذين لا يرفضون التراث جملة وتفصيلا ولا يقطع مع كل مكونات ذلك التراث. ورهانه على الحداثة مرتبط بثقافة المجتمع ولا نهضة دون تفكيك عناصر الموروث الثقافي وإعادة تركيبه بشكل متوازن.

وفي رأي سبيلا فإن المغاربة في تعاطيهم مع الحداثة تميزوا بالكثير من العقلانية وأحيانا بالراديكالية، وهو ما اختلفوا فيه عن الكثير من المحاولات في دول عربية أخرى.

وثمة علاقة حذرة وملتبسة يقرها سبيلا، بين التحديث والحداثة كبنية فكرية جامعة للقسمات المشتركة في المعرفة، في فهم الإنسان، في تصور الطبيعة، وفي التاريخ، ومنظورا إليها من خلال منظور أقرب ما يكون إلى المنظور البنيوي، في حين يكتسي مفهوم التحديث مدلولا جدليا وتاريخيا منذ البداية من حيث إنه لا يشير إلى القسمات المشتركة بقدر ما يشير إلى الدينامية التي تقتحم هذه المستويات، وإلى طابعها التحولي.

هناك سبب يجعلنا نستمرّ في الاعتقاد بأن السقوط في حفرة الماضي، سيجعلنا أسوأ، بالتالي فالصراع بين التقليد والحداثة في العالم العربي من الماء إلى الماء سيكون طويلا وحادا، والانتقال من الحالة الأولى إلى الأخرى لن يكون بذلك اليسر. وسبيلا يعي ذلك جيدا، كقارئ جيد للفلسفة السياسية، فطريق الانتقال مليء بالصدمات الكوسمولوجية، والجراح البيولوجية أو الخدوش السيكولوجية للإنسان، وأيضا بالتمزقات العقدية لأنه يمر عبر مطهر العقل الحديث والنقد الحديث.

يرى سبيلا أن كل مجتمع معرض طبعًا لآلية التطور والتحديث لكنه يفرز داخليًا عوائق في طريقه، أو يبدي نوعًا من المقاومة، سواء كانت عوائق موضوعية خارجية ليست بإرادة الأفراد أو عوائق ذاتية تنحو نحو رفض التطور. وهو يدرك أن الحداثة ليس بمقدورها أن تمحو بجرة قلم ظلال الماضي وميتافيزيقا التراث، كما أن التقليد لا يستطيع صد جاذبية الحداثة وحركتها المتدفقة التي تغمر القيم والسلوك. فمنذ سبعينات القرن الماضي، وتحديدا منذ هزيمة ٦٧ واندلاع الثورة الإيرانية دخل العرب في حركة غيبية تاريخية مناهضة لمرحلة الحداثة، فكأن هذه المجتمعات التقليدية وهذه الثقافات التقليدية بحسب رأي الفيلسوف المغربي، تدافع عن نفسها، وتنتقد الحداثة محاولة التأكيد بأنها ليست طريقا سالكا وأنها لا تقود إلى حل المشاكل.

كثيرا ما نسمعُ تلميحات عن قوة وسلطة التحديث في مجتمعات تعطي الأولوية لتمجيد مركز للتقليد والحنين إلى الماضي في الفهم والتحليل والقياس والاقتباس، لهذا فالسلطة عند سبيلا موسعة ومتشابكة ولا تقتصر فقط على السلطة السياسية في شقيها الدولاتي والمؤسسات الرديفة، بل تتشابك معها في الثقافة والفن والرياضة والسوق والمسجد وغيرها، سلط متعددة تتوحد لأجل مهمة الضبط والسيطرة والعقلنة والمراقبة وإعادة توزيع الثروة المادية والمعنوية.

فالواقعية التي تحدد الفهم والمعنى عند هذا الفيلسوف المغربي، دفعته إلى القول إن المجتمع هو مجال قوى وصراع وليس جنة قائمة على التوادد والتعاطف والتعاضد. إنه شبكة من القوى تتصارع حول السلطة والثروة والحظوة باستخدام جملة استراتيجيات. بالتالي فالسلطة سلسلة شبكات تخترق وتشكل الجسم الاجتماعي كله وتنتظم عبر محاور ونويات ومراكز معينة، وهي أيضا علاقات وإجراءات وممارسات وليست كيانا جوهريا ملموسا.

ينتعش التقليد ويدافع عن نفسه بل يقدم نفسه كخط مقاومة أخير ضد التطور الذي يقود إلى الاستلحاق والتفكك لدرجة تسمح بالقول إن المجتمعات العربية الإسلامية تعيش في نفس الوقت ديناميتين تاريخيتين موضوعيتين وقويتين: دينامية التحديث ودينامية التقلدة. والأخيرة تعبر عن نفسها بشكل قوي في كل من المجال السياسي والسلوكي والأخلاقي والثقافي، لدرجة تسمح بالقول إنها تمثل سلطا مضادة لسلط التحديث بمؤسساته وقيمه، سلط هي اليوم من أقوى السلط في المجتمعات العربية، إنها سلط تخشاها الدولة والأحزاب العصرية ويخشاها المثقفون العصريون.

وإذا كان الالتقاء بين سلطتي التقليد والتحديث جد معقدة ويحتاج إلى تفكيك البنية المجتمعية على عدة مستويات، فالأمر عند سبيلا كثيرا ما يتلبس التقليد لبوس الحداثة ليتمكن من التكيف والاستمرار بينما تتلبس الحداثة بالتقليد أحيانا لتتمكن من أن تنفذ وتفرض نفسها. وذلك بين منظومتي القيم، وفي المستوى الإدراكي، والسلوك الفردي، في المعرفة، في الاقتصاد وفي السياسة.

وبالإمكان رصد ذلك التزاوج في المجال السياسي كون هذا الأخير قابلا للقياس الكمي والنوعي، وهنا يعطينا سبيلا مثالا على تمازج مصدري للشرعية السياسية: الشرعية التقليدية المستمدة من الماضي، والتراث والأجداد، وشرعية المؤسسة العصرية القائمة على أن الشعب هو مصدر السلط، وهو على الرغم من كل مظاهر التعايش تمازج صراعي في عمقه، فالصراع بين المنظومتين صراع معقد وشرس بل قاتل.

وككل قطبين متعارضين عندما تصطدم الحداثة بمنظومة تقليدية تتولد عنها تمزقات وتخلق تشوهات ذهنية ومعرفية وسلوكية ومؤسسية كبيرة، وتخلق حالة فصام وجداني ومعرفي ووجودي معمم، والسبب كما يراه محمد سبيلا، اختلاف وصلابة المنظومتين معا.

للتقليد، حسب سبيلا، صلابته وأساليبه في المقاومة والصمود أمام الانتشار الكاسح للحداثة، وطرائقه في التكيف معها ومحاولة احتوائها، كما أن للحداثة قدراتها الخاصة على اكتساح وتفكيك المنظومات التقليدية، وأساليبها في ترويض التقليد، ومحاولة احتوائه أو استدماجه أو إفراغه من محتواه.

ومن هذه المنطلقات نفهم فلسفة محمد سبيلا، الذي شرّحَ نتائج النكوص للوراء ومنها انتشار الفكر الظلامي المتطرف. ولذلك كله فإن لسبيلا نظرية خاصة في ما يتعلق بداعش، فهذا المكون زاوج بين منتجات الحداثة في شقها التقني والتراثي الغارق في محافظته من الجانب العنيف المتطرف، موضحا تزاوج الاثنين بعدما اندمج ضباط الجيش العراقي الذي حله بول بريمر بعد غزو البلد في العام ٢٠٠٣، كانوا متسلحين إضافة إلى الجانب العسكري بتكوين ديني، وبعناصر منشقة عن القاعدة.

وإذا أردنا استقاء رأي الفيلسوف في الداعشية كظاهرة سيكواجتماعية يرد بأن الوقت لم يحن بعد لدراستها حتى من الجوانب الأخرى وخصوصا العقدية منها على الخصوص، دراسة الظاهرة تحتاج إلى وقت لاستجماع أكثر ما يمكن من المعطيات والدفع بالأسباب الموضوعية والواقعية لانطلاقة داعش واستغلال ثغرات المجتمع للاختراق وضرب الأهداف.

هنا يقف سبيلا، ليتفق على أن الإرهاب لا دين له، موضحا أن الأمر هو أكثر من دفع الاتهام عن احتضان الدين للإرهاب، بل لا بد من البحث عن الجذور العقدية والدينية للاتجاهات المتطرفة.

لا يخفي سبيلا أن أصول قيام داعش وتغلغله في أوساط اجتماعية معينة تعود إلى الإسلام السياسي بداية القرن العشرين، المرتبطة بما خلفته صدمة الاستعمار داخل الأوساط المستنيرة وربطه بالتفريط في المبادئ الدينية. من هنا تطورت الفكرة الجنينية لما تعرفه الساحة من تطرف وعنف عائد إلى عقيدة متزمتة تحتمي بالتراث في جانبه المتشدد وليس في التأويل العقلاني الاجتهادي التنويري.

لقد داهمت الحداثة المجتمعات العربية لا لتحررها من ماضيها، وإنما لكي تصبح ذريعة للعودة إليه، والنبش في قبوره المظلمة بحثا عن المزيد من الأوهام والخرافات والأباطيل كمقدمة للتطرف والدعشنة، هكذا يعتقد سبيلا، ويفسر بعض الباحثين هذا التوجه، بأن هناك نسبية في حكم سبيلا، على الحركات الأصولية، ويدعم هذا الرأي من خلال تحليله للظاهرة بالقول إن الحركات الأصولية هي رد فعل ثقافة تقليدية ضد الحداثة كحضارة غازية وثقافة استئصالية للثقافات الأخرى.

عن جريدة العرب

محمد سبيلا: «فيلسوف الحداثة» يترجل عن جواده

سعيد منتسب

إنه المفكر والفيلسوف المغربي محمد سبيلا (١٩٤٢ – ٢٠٢١)، الذي اضطر المغاربة إلى توديعه الوداع الأخير يوم الثلاثاء الماضي، عقب إصابته بفيروس "كورونا". قضى الراحل وقتاً طويلاً يمدد فكره عرضاً وارتفاعاً، وبكل الأبعاد الممكنة، من أجل أن يملأ المساحات الفارغة التي تؤرق مجايليه من المفكرين والفلاسفة والمثقفين، فرغم شبكة الطرق الكثيفة التي تفضي كلها بالعقل إلى الضياع، استطاع أن يوجد كل يوم في منطقة مختلفة.

لم يختبر سبيلا المقولات النظرية والمفاهيم الفلسفية من أي برج عاجي، بل كان لصيق الصلة بالأرض، يمشي في الأسواق، ويقدم تأملاته، محطماً تلك الصورة النمطية التي تجعل من الفيلسوف كائناً "ترانساندالياً" (يتخطى المكان والزمان والواقع المادي).

لقد أدرك محمد سبيلا مبكراً أن الفكر السديد لا يعني أن تخترع الغابة، وألا تجعل الآخرين يعتقدون أن الأشجار المثمرة تنبت فقط في الأعالي، وأن المنابع لا تجعل المياه ساكنة في مكانها. لم يكن من هؤلاء الذين يغتبطون أمام الإثارة التي تصنعها الذات حين تجد نفسها مجبرة على الاختلاء بنفسها من دون إمكانية فعل أي شيء.

لهذا، ظل سبيلا دائما قوة اقتراحية، يُرى ضوءه بوضوح، ويُسمع صوته بهدوء، في الحزب الذي انتمى إليه، وفي الجامعة التي كان إحدى دعائمها، وفي مقالاته التي كانت تتميز بالاتقاد المعرفي الحاد، وفي كتبه المحجوزة للنقد والتنوير. وظل في كل هذه المحافل مهتماً بالدرس الفلسفي، وعلى وجه الخصوص بسؤال الحداثة والتحديث والدولة المدنية و"عقلنة" الخطاب الديني والعولمة وحقوق الإنسان.

علاوة على عمله أستاذاً جامعياً في كلية الآداب بالرباط، ورئيساً لشعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس في كلية الآداب بفاس ما بين العامين ١٩٧٢ و١٩٨٠، ثم توليه رئاسة "الجمعية الفلسفية المغربية" ما بين عامي ١٩٩٤ و٢٠٠٦، وإدارة مجلة "مدارات فلسفية" من العدد ١ إلى ١٨، وإسهامه في تحرير مجلة "المشروع" التي يديرها زميله المفكر كمال عبد اللطيف، علاوة على كل ذلك، كان مداد قلم محمد سبيلا سيالاً فياضاً، ذلك أنه نشر عدداً لا بأس به من المقالات والدراسات في صحف ومجلات مغربية وعربية، مثل "الاتحاد الاشتراكي" و"أقلام" و"الفكر العربي المعاصر" و"المستقبل العربي".

كما عرف بزاويته الشهيرة "مفارقات" في جريدة "الاتحاد الاشتراكي" المغربية، وأيضاً بعموده المهم في جريدة "الحياة" اللندنية، والذي جُمعت مواده ضمن كتاب يحمل عنوان: "للسياسة، بالسياسة" الذي أصدرته دار "إفريقيا الشرق" في الدار البيضاء.

أما في التأليف، فلا يقل الأمر غزارة. وقد تراوحت كتبه بين البحث الفكري والفلسفي وكذا الترجمة، ومنها: "الإيديولوجيا: نحو نظرة متكاملة"، و"الأسس الفكرية لثقافة حقوق الإنسان"، و"زمن العولمة فيما وراء الوهم"، و"في الشرط الفلسفي المعاصر»...

كما ساهم في ترجمة أعمال فكرية مهمة، منها: "الفلسفة بين العلم والأيديولوجيا" للويس ألتوسير، و"التقنية – الحقيقة – الوجود" لمارتن هايدغر، و"التحليل النفسي لبول لوران أسون، و"التحليل النفسي" لكاترين كليمان.

لقد صدق تلميذه ناصر السوسي حين قال: إن "محمد سبيلا كان يمثل أمام طلبته الدهشة الفلسفية الهادئة". ألم يكن سبيلا سداً منيعاً أمام صُنّاع الظلام وزبانيته الأوفياء؟.

لقد مثّل سبيلا، بالنسبة إلى العاملين بالفكر في حقل الجامعة، رجفة الفكر الذي لا يستعمل اللغة التي تنم عن الحرج. كان "واضحاً كالماء وحاداً كالسكين"، وكان يحرص على إظهار ما لا يجوز إخفاؤه.

لا يبحث عن الرقاد في أي منخفض لينجو، لأنه يدرك، من منطلق التزاماته الفكرية والمهنية والسياسية، أنه منذور للخدمة، وأن المرح في الشمس أفضل بكثير من الارتقاء الاجتماعي خلف الحجب.

ظل الراحل الطريق السريع نحو الحداثة بالنسبة إلى المغاربة، إذ انشغل، على نحو حصري، بأسئلتها وإشكالياتها على مستوى المفهوم والتنزيل والتأثير، وكتب فيها مجموعة من المقالات والدراسات، وأفرد لها حيزاً مهماً من مؤلفاته منها: "مدارات الحداثة"، و"الأصولية والحداثة"، و"الحداثة وما بعد الحداثة"، و"دفاعاً عن العقل والحداثة"، و"مخاضات الحداثة».

إنّ الحداثة، بالنسبة إلى سبيلا، تتميز "بتطوير طرق وأساليب جديدة في المعرفة، قوامها الانتقال التدريجي من "المعرفة" التأملية إلى المعرفة التقنية؛ فالمعرفة التقليدية تتسم بكونها معرفة كيفية ذاتية وانطباعية وقيمية. فهي أقرب أشكال المعرفة إلى النمط الشعري – الأسطوري القائم على تملي جماليات الأشياء وتقابلاتها ومظاهر التناسق الأزلي القائم فيها. أما المعرفة التقنية، فهي نمط من المعرفة قائم على إعمال العقل بمعناه الحسابي، أي معرفة عمادها الملاحظة والتجريب والصياغة الرياضية والتكميم».

ويعتبر سبيلا أن النموذج الأمثل لهذه المعرفة هو العلم أو المعرفة العلمية التي أصبحت نموذج كل معرفة. هذا النمط من المعرفة تقني في أساسه، من حيث إن المعرفة العلمية استجابة للتقنية وخضوع لمتطلباتها، فالتقنية ليست مجرد تطبيق للعلم عبر إرادة الإنسان، بل هي ما يحدد للعلم نمط معرفته المطلوب؛ فالعلم الحديث علم تقني في جوهره، أي أنه خاضع لما تقتضيه التقنية في الدرجة الأولى».

لم يكن سبيلا معنياً بليّ عنق الحداثة، وسوقها منهجياً وإبستمولوجياً نحو متاهات التراث، وتكوين العقل العربي، كما فعل محمد عابد الجابري، الذي دعا إلى تبيئة التراث وعصرنته وتحديثه.

لم يتأثر الراحل بهذا الإغواء، ولا بجاذبية الاستغراق في النصوص التأسيسة الأولى. وبذلك، كان أقرب إلى المفكر المغربي عبد الله العروي، صاحب كتاب "الإيديولوجيا العربية المعاصرة"، الذي دعا إلى ضرورة القطيعة مع التراث والانخراط في العصر والانتماء إليه من دون إضاعة الوقت في استحضار الأرواح، وإجبارها على النطق بالأحكام بشأن ما يعتري العالم العربي والإسلامي من أزمات.

إن الحداثة هي العلم، ولا شيء آخر أشد إغراء من المعرفة العلمية والتقنية لتحقيق الحداثة، لأنها وحدها من تملك السيطرة الداخلية والخارجية على الإنسان وعلى الطبيعة. أما الاستمرار في الالتفات في التراث، والاستغراق في محاولات الفهم والتفسير من منظور ما أنجزه الفلاسفة والفقهاء السابقون، فلن يقود سوى إلى منزلق "الهويات القاتلة"، بتعبير الكاتب والروائي اللبناني أمين معلوف.

لقد انتصر محمد سبيلا، حتى ولو لم يصرح مطلقاً بذلك في حياته، للعروي على حساب الجابري، داعياً إلى إحلال ثقافة العلم محل الثقافة التقليدية وتكيفها بالتدريج، وتحويلها إلى مصدر للشرعية السياسية، وإلى نواة لـ"إيديولوجيا سياسية" واهبة للمعنى.

من هذا المنطلق، دعا محمد سبيلا، مثله مثل العروي، إلى إحداث تحول جذري على كل المستويات، واستدماج الحداثة في المعرفة، وفي فهم الإنسان وسلوكه وطرق تفكيره، وفي تصور الطبيعة، وفي التاريخ.

إنّها بنية فكرية كلية. هذه البنية عندما تلامس بنية اجتماعية تقليدية، فإنها تصدمها وتكتسحها بالتدريج، ممارسة عليها ضرباً من التفكيك ورفع القدسية، لتجنب التلفيق والتمزقات والتشوهات على مستوى وضع البنيات وتنزيل البرامج.

لقد راهن محمد سبيلا على ركوب الحداثة للانتماء إلى العصر، وعلى مهام الفكر وأدوار المثقف في التنوير ومواجهة حراس الفكر الغيبي، وعلى السياسة الديمقراطية من أجل وجود مشترك آمن، وعلى التربية من أجل صناعة إنسان في مستوى التحديات، وعلى "عقلنة" الخطاب الديني، وعلى الانتقال الفكري نحو "ثقافة الحداثة" على المستوى السياسي والإيديولوجي. وبذلك، استحق لقب "فيلسوف الحداثة».

عن موقع الميادين

> " لم يكن من الذين يتعثرون في منحدرات الفكر وهم يواجهون الولادات المتعددة للأغلال، بل ظل بحركة واحدة متصلة يدافع من دون ارتباك، وبصوت عال، عن الحديقة غير المسورة للحداثة.
>
> "

محمد سبيلا بنى مشروعه الفلسفي على قاعدة الحداثة النقدية

عبد الرحيم الخصار

> ظلّ المشارقة ينظرون إلى المغرب باعتباره بلدَ عقلٍ أكثر من كونه بلدَ أدبٍ. وإن كان هذا التصنيف يحمل طابعاً تعسفياً، غير أنه يتضمن الكثير من الحقيقة. فأسماء مثل محمد عابد الجابري وعبدالله العروي وعبد الكبير الخطيبي تفوق من حيث الحضور والتداول والتأثير جلّ كتاب القصة والرواية والشعر. وإن كان الثلاثة قد كتبوا في الأدب، الرواية والشعر والسيرة، غير أنهم عُرفوا وبرزوا كمفكرين لا كأدباء.

وليست الأسماء الثلاثة إلا رأس الهرم الذي يتشكل من أسماء أخرى في حقل الفكر والفلسفة والعلوم المرتبطة بهما من سوسيولوجيا وعلم المستقبليات والجماليات وغيرها. ويمكن الإشارة هنا إلى أسماء تنتمي إلى العصر الحديث من قبيل: محمد عزيز الحبابي، طه عبد الرحمان، عبد السلام بنعبد العالي، سالم يفوت، محمد وقيدي، عبد الإله بلقزيز، المهدي المنجرة، فاطمة المرنيسي، كمال عبد اللطيف، بنسالم حميش، علي أومليل، سعيد بنسعيد العلوي، عبد الصمد الديالمي، نور الدين الزاهي، بول باسكون، محمد جسوس، مصطفى محسن، إدريس كثير، موليم العروسي وغيرهم.

وإذا كانت العقود الأخيرة من القرن الماضي هي مرحلة بروز وتوهج الأسماء الفكرية في المغرب فإن مطالع القرن الحالي شكلت مرحلة أفول هذه الأسماء، فقد غادرنا تباعاً منذ بداية الألفية الجديدة عدد من المفكرين المغاربة الذين أثروا حقول النقاش والعقلانية بمنجزات في غاية الأهمية.

وقد انضم أمس إلى قائمة الراحلين من أهل الفلسفة المعاصرة المفكر المغربي المعروف محمد سبيلا الذي فارق الحياة عن ٧٩ سنة بسبب إصابته بوباء كورونا.

وإذا كان من لقب يليق بمحمد سبيلا ويكشف جوهر مشروعه فهو لقب "فيلسوف الحداثة". ويمكننا هنا أن نستمد مشروعية هذا اللقب من مؤلفاته الفكرية: "مدارات الحداثة" ١٩٨٧، "الأصولية والحداثة" ١٩٩٨، "دفاعاً عن العقل والحداثة" ٢٠٢٠، "مخاضات الحداثة" ٢٠٠٧، "الشرط الحداثي" ٢٠٢٠، فضلاً عن كتبه الأخرى التي كانت امتداداً للنقاش حول هذا المفهوم الملتبس الذي ساهم سبيلا في التنظير له، وفي نقده أيضاً: "زمن العولمة وما وراء الوهم" ٢٠٠٥، "في الشرط الفلسفي المعاصر" ٢٠٠٧، "في تحولات المجتمع المغربي" ٢٠١١.

كانت مؤلفات الراحل ومحاضراته ومداخلاته في وسائل الإعلام تنصب بالأساس في نهر واحد، هو نهر تحديث الفكر والدفاع عن القيم العقلانية والقطع مع كل السبل التي تريد أن تجدّف بالبلاد وأهلها عكس تيار التنوير. لذلك كان سبيلا حالماً كبيراً بمغرب آخر منفتح على العالم ومنخرط في العصر بكامل أنواره.

قلّب سبيلا مفهوم الحداثة على مدار عقود من الاشتغال العلمي، وشرّح هذا المفهوم في مختبره الخاص عبر مداخل متعددة فكرية وسياسية ومجتمعية. لذلك عمل الراحل باكراً برفقة صديقه المفكر المعروف عبد السلام بنعبد العالي على استضافة الفلسفة الغربية، وتقديمها إلى الطلبة والباحثين في صيغ محفزة ومشجعة على القراءة والمصاحبة. ونستحضر في هذا الصدد سلسلتهما الشهيرة "دفاتر فلسفية". وفي سياق هذه الاستضافة نستحضر ترجماته المبكرة لمؤلفات ألتوسير وهايدغر وميشيل فوكو وبول لوران أسون وكاترين كليمان، فضلاً عن انخراطه في ترجمات جماعية خلال الثمانينيات، نذكر منها "تساؤلات الفكر المعاصر" و"حوارات الفكر المعاصر».

كان سبيلا يرى أن الحداثة رهان على الانتقال من المعرفة التأملية إلى المعرفة التقنية، أي الخروج من الانطباعية والذاتية والقيمية إلى إعمال العقل واعتماد مناهج ترتكز بالأساس على الملاحظة والتجريب. كما كان يرى أن الحداثة ركزّت في البداية على الإنسان باعتباره محوراً لكل التحولات، وأعادت الاعتبار إلى المسألة الإنسانوية، غير أنها خضعت لاحقاً لنقد داخلي كشف أن الإنسان ليس الفاعل الوحيد، وليس كائناً مثالياً بالضرورة، بل هو "ذات مشروخة ومشروطة، غير عارفة بذاتها، وخاضعة لحتمية البنيات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية واللسانية والرمزية التي تحددها معاً، ذات يداهمها اللاعقل والوهم والمتخيل من كل جانب».

إن الحداثة في نظر سبيلا بنية فكرية كلية، حين ترتطم ببنية سوسيولوجية تقليدية تعرّيها وترفع عنها قدسيتها. فكل منظومة فكرية قابلة للنقد والمساءلة، ووظيفة العقل الحديث هي تفكيك البُنى بعيداً من كل نظرة وثوقية. كان ينتقد الفكر التقليدي لأنه وهو ينظر إلى المستقبل، إنما ينظر إليه باعتباره عودة للماضي أو تشكّلاً جديداً له، لا باعتباره زمناً آخر ينطلق من الحاضر ويقطع مع الماضي نفسه.

تبدو كتابات محمد سبيلا قريبة من القراء، فهي تتبنى نظريات تبسيط المعارف. لذلك نجد لغته بعيدة من التقعر والارتكان المفاهيمي والجنوح بالقارئ إلى متاهات مفهومية وفلسفية. كان يستند إلى مرجعية قرائية هائلة يعمل على إذابة مُدخلاتها في صهارة جديدة وإعادة تقديمها للقارئ بصيغ أبسط وأوضح. ويبدو أنه قد استفاد في هذا الصدد من تدريسه للفلسفة في الجامعة المغربية وفق مناهج ديداكتيكية حديثة، ومن انخراطه أيضاً في تأليف الكتب المدرسية الخاصة بطلاب المراحل الثانوية. غير أنه قد يكون استفاد أكثر من مقالاته في الصحافة، فالكتابة للصحافة اليومية والإشراف على مشاريع صحافية يقودان صاحبهما إلى الدنو من قارئ آخر يختلف عن الباحث الجامعي الذي يملك أدوات تلقٍ خاصة يدعمها الاستعداد المسبق للانخراط في مشروع علمي.

قسّم سبيلا المثقفين إلى ثلاثة أنواع: "المثقف التقليدي"، "المثقف الرسمي" و"المثقف النقدي". وإذا كان هو نفسه يقف ضد النوع الأول، ويربأ بنفسه عن النوع الثاني، فإنه ينضوي بشكل أو بآخر ضمن النوع الثالث. يبدو أن الخيار الحداثي في فكر الراحل كان منسجماً مع سيرته وتجربته الحياتية. فهو من مواليد مدينة الدار البيضاء التي تشكل المظهر السوسيولوجي والاقتصادي والعمراني الأكثر حداثة في المغرب، ومن البيضاء انطلق إلى باريس باكراً لاستكمال دراساته العليا في السوربون، ليشتغل بعدها أستاذاً في الجامعة المغربية ويشغل منصب رئيس شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس لفترة طويلة، ويترأس الجمعية المغربية للفلسفة لأكثر من عشر سنوات.

دخل محمد سبيلا إلى العمل السياسي باكراً، انخرط في الصف الوطني ثم انتقل إلى الخط التقدمي، غير أنه أغلق باب السياسة وغادر بيتها بعدما تعرض لما سماه بـ "الخيانة". وهو هنا يعيد تقريباً سيناريو مفكرين آخرين هما محمد عابد الجابري وعبدالله العروي اللذين جربا طريق السياسة، ثم اكتشفا لاحقاً أن طريق الفلسفة أعمق وأنبل وأكثر شساعة وربما أكثر إفضاءً إلى الخلود.

عن اندبندنت عربية

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

رحيل المفكر المغربي محمد سبيلا جراء إصابته بـ"كورونا"

متابعة المدى

توفي مساء الاثنين ١٩ تموز الجاري في الرباط المفكر والكاتب والأستاذ الجامعي المغربي البارز ، محمد سبيلا، عن عمر يناهز ٧٩ سنة ، بعد ان خضع للعلاج بقسم العناية المركزة في إحدى مستشفيات العاصمة بسبب إصابته بفيروس "كوفيد ١٩".

وأصيب المفكر المغربي ب"كورونا" قبل حوالي أسبوعين، لكن تدهور وضعه الصحي استدعى نقله من بيته حيث كان يتابع العلاج إلى المستشفى .

ويعتبر سبيلا الذي ولد عام ١٩٤٢ في مدينة الدار البيضاء، من أبرز المفكرين المنشغلين بأسئلة الحداثة وما بعد الحداثة، وعقلنة الخطاب الديني، وقضايا الدولة المدنية. . تابع دراسته العليا في كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بجامعة السوربون بباريس. حصل على الإجازة في الفلسفة سنة ١٩٦٧ وعلى دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٧٤. وفي سنة ١٩٩٢نال درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بالرباط والتي يشتغل فيها حاليا ضمن الهيئة التدريسية.

اشتغل سبيلا بتدريس الفلسفة منذ ١٩٦٧ بالتعليم الثانوي بمدينة سلا، ثم بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس بين سنوات ١٩٦٧-١٩٨٠، ثم بجامعة محمد الخامس بالرباط منذ ١٩٨١. أسندت إليه رئاسة "شعبة الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع "بفاس خلال الفترة ١٩٧٢-١٩٨٠، ثم رئاسة "الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة"، بين ١٩٩٤-٢٠٠٦. كما شارك في إدارة مجلات: المشروع، مدارات فلسفية.

جمع سبيلا بين الثقافة السياسية الوطنية والتكوين الفلسفي المنفتح على الماركسية النقدية واللسانيات البنيوية والتحليل النفسي والانثربولوجيا، ولم يكن يتردد في إبداء إعجاب خاص بالفكر الجرماني. وهذا ما انعكس على كتاباته التي انتظمت حول الأيديولوجيا ونقدها في مرحلة السبيعنات (بتأثير من أفكار ماركس وفرويد وماركيوز وإريك فروم)، ثم توسعت لتشمل تجربة الحداثة وخطاباتها ونقدها في مرحلة ثانية (اهتمامه الخاص بكتابات آلان تورين، داريوش شايغان) .

زاوج سبيلا في أعماله بين الكتابة الأكاديمية والتأليف البيداغوجي والترجمة وهو ما يجعل من سيرته الثقافية سيرة مثقف أكاديمي منفتح في آن واحد على هموم المجتمع وأجوبة العلوم الاجتماعية في مغرب ما بعد الاستقلال.

نشر دراسات فلسفية بعدة صحف ومجلات مغربية وعربية: جريدة الاتحاد الاشتراكي ، أقلام، آفاق الوحدة، الفكر العربي المعاصر، المستقبل العربي، المناظرة.

وينتمي سبيلا إلى «رعيل من المفكرين والأكاديميين الذين ارتبطت لديهم الثقافة والفكر بالنضال من أجل التحرر والتحديث والديمقراطية وتحقيق نهضة وطنية شاملة. وهو ممن عبروا في كتاباتهم الفكرية عن هاجس البحث عن آفاق الحداثة، والدفاع عن ثوابتها، والسعي إلى إشعاع مكوناتها وروافدها الخصيبة. من هنا جاء إنتاجه الفكري والفلسفي، تحليلاً وتأريخاً وترجمة، متصلاً على نحو وطيد بهذا الأفق الفكري. كما تجلت إسهاماته العميقة في تبديد التباسات الفكر العربي بصدد الفلسفة الحديثة والمعاصرة، سواء بالتأليف أو بالخوض في النقاش العام، أو الممارسة السياسية» .

يذكر أن سبيلا تابع دراساته الفلسفية بجامعة محمد الخامس بالرباط وجامعة السوربون بباريس، قبل أن يشتغل أستاذاً للفلسفة الحديثة والمعاصرة بكلية الآداب بالرباط، ويشغل منصب رئيس شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ما بين ١٩٧٢ و١٩٨٠، وترأس «الجمعية الفلسفية المغربية»، ما بين ١٩٩٤ و٢٠٠٦.

ونشر سبيلا الكثير من الدراسات الفلسفية والأبحاث، في مجموعة من الدوريات والمجلات العربية والغربية، وأسهم في تحرير مجلة «المشروع» وإصدار مجلة «مدارات فلسفية»؛ فيما توزع إنتاجه بين البحث الفكري والفلسفي والترجمة، ومن أهم مؤلفاته «مدارات الحداثة» (١٩٨٧) و«الأيديولوجيا: نحو نظرة تكاملية» (١٩٩٢) و«الأصولية والحداثة» (١٩٩٨) و«المغرب في مواجهة الحداثة» (١٩٩٩) و«للسياسة بالسياسة» (٢٠٠٠) و«أمشاج» (٢٠٠٠) و«الحداثة وما بعد الحداثة» (٢٠٠٠) و«دفاعاً عن العقل والحداثة» (٢٠٠٢) و«زمن العولمة فيما وراء الوهم» (٢٠٠٥) و«حوارات في الثقافة والسياسة» (٢٠٠٦) و«في الشرط الفلسفي المعاصر (٢٠٠٧) و«مخاضات الحداثة» (٢٠٠٧) والأسس الفكرية لثقافة حقوق الإنسان» (٢٠١٠) و«في تحولات المجتمع المغربي» (٢٠١١). ومن أهم ترجماته «الفلسفة بين العلم والأيديولوجيا» لألتوسير (١٩٧٤) و«التقنية – الحقيقة – الوجود» لمارتن هايدجر (١٩٨٤) و«التحليل النفسي» لبول لوران أسون (١٩٨٥) ونظام الخطاب» لميشيل فوكو (١٩٨٦) و«التحليل النفسي» لكاترين كليمان (٢٠٠٠) .

وكتبت عن سبيلا، الذي يوصف بـ«المفكر القلق الذي يجد ضالته في التفكير في الحداثة»، والذي كانت له، أيضاً، مساهمات في التأليف المدرسي والجامعي، أبحاث ومؤلفات تناولت تجربته في الساحة الثقافية والفكرية المغربية والعربية، على مدى أكثر من نصف قرن، «منذ اختياره دراسة الفلسفة وتدريسها والنضال من أجل تلقينها في الجامعة، حيث جعل من الحداثة مجالاً استأثر بدراسته ورصد أثرها على الوعي العربي، متسائلاً عن علاقة الحداثة بالتراث باستعمال نظرية نقدية صرفة، كما اختار الثقافة دون أن ينعزل عن السياسة وخباياها»، كما نقرأ في «مسار مثقف حداثي... حوارات مع محمد سبيلا في الثقافة والسياسة» للباحث محمد الأندلسي، في تناوله لمسار وتجربة هذا الرجل الذي «اشتغل على التقليد والحداثة وإشكالاتها العويصة كموطن داء المجتمعات العربية التي لم تستطع لحد اللحظة إيجاد التوليفة المناسبة للخروج من زمن الانحطاط، وعرّف القارئ العربي على أحدث منتجات الفكر الإنساني المعاصر من خلال ترجمات كلاسيكياته في الفلسفة وعلم النفس والابستمولوجيا .